

الانفعال كمنظومة تفسيرية للسلوك الإنساني: مقاربة نظرية تحليلية Emotion as an Explanatory System of Human Behavior: A Theoretical Analytical Approach

يوسف الأسود

جامعة الوادي (الجزائر) ، lassouedyoucef39@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2025/12/16 ؛ تاريخ القبول : 2026/03/25

ملخص: يهدف هذا المقال إلى تقديم مقاربة نظرية تحليلية للانفعال بوصفه منظومة تفسيرية للسلوك الإنساني، من خلال تتبع تطور مفهوم الانفعال في الأدبيات النفسية، وتحليل موقعه داخل النظريات النفسية الكبرى، ونقد حدود التفسيرات الاختزالية التي عالجت كاستجابة ثانوية أو متغير تابع. وينطلق المقال من فرضية مفادها أن السلوك الإنساني لا يمكن فهمه فهماً شاملاً دون استحضار البعد الانفعالي بوصفه بنية دينامية تتفاعل فيها المكونات المعرفية والفيسيولوجية والسلوكية. كما يناقش المقال العلاقة السببية بين الانفعال والسلوك، ودور الانفعال كوسيط تفسيري بين المثير والاستجابة، إضافة إلى بعده التنبؤي والتنظيمي. ويقترح في ختامه نموذجاً نظرياً تكاملياً يدمج الانفعال والمعرفة والسلوك في إطار تفسيري واحد، متجاوزاً الثنائية التقليدية بين العقل والانفعال، ومؤكداً على القيمة التفسيرية المركزية للانفعال في فهم السلوك الإنساني.

الكلمات المفتاحية:

الانفعال؛ السلوك الإنساني؛ التفسير النفسي؛ التنظيم الانفعالي؛ النموذج التكاملي

Abstract: This theoretical paper aims to conceptualize emotion as an explanatory system of human behavior by examining the evolution of the concept of emotion in psychological literature and analyzing its position within major psychological theories. The study critiques reductionist approaches that treat emotion as a secondary response or a dependent variable, arguing instead that human behavior cannot be fully understood without considering emotion as a dynamic system integrating cognitive, physiological, and behavioral components. The paper discusses the causal relationship between emotion and behavior, the mediating role of emotion between stimulus and response, and the predictive and regulatory functions of emotional processes. Finally, it proposes an integrative theoretical model that links emotion, cognition, and behavior within a unified explanatory framework, thereby transcending the traditional dichotomy between reason and emotion and emphasizing the central explanatory value of emotion in understanding human behavior.

Key words:

Emotion; Human behavior; Psychological explanation; Emotion regulation; Integrative model

المقدمة

يعد السلوك الإنساني من أكثر الظواهر تعقيدا في العلوم الإنسانية، نظرا لتشابك العوامل الداخلية والخارجية التي تسهم في تشكيله وتوجيهه. وقد سعت الاتجاهات النظرية المختلفة إلى تفسير هذا السلوك انطلاقا من زوايا متعددة، فركزت بعض المقاربات على المثيرات الخارجية والاستجابات الظاهرة، في حين أولت أخرى اهتماما بالعمليات المعرفية والبنى الذهنية الكامنة. غير أن هذه المحاولات، على اختلافها، أظهرت محدودية واضحة حين تم تناول السلوك بمعزل عن البعد الانفعالي الذي يشكل أحد المكونات الجوهرية للتجربة الإنسانية (زهران، 2005).

يمثل الانفعال بعدا نفسيا مركزيا يرافق الإنسان في مختلف مواقف حياته، ويؤثر بعمق في إدراكه للواقع، وفي تفسيره للأحداث، وفي أنماط استجابته السلوكية. فالانفعال لا يقتصر على كونه حالة وجدانية عابرة، بل ينظر إليه بوصفه منظومة دينامية تتداخل فيها المكونات الفسيولوجية والمعرفية والسلوكية، بما يجعل منه عنصرا فاعلا في تنظيم السلوك الإنساني وتوجيهه (عبد الرحمن، 1998). ومن هذا المنطلق، يصبح من الصعب تقديم تفسير متكامل للسلوك الإنساني دون استحضار الدور البنوي الذي يؤديه الانفعال.

لقد شهدت الأدبيات النفسية تحولا ملحوظا في النظر إلى الانفعال، حيث انتقل من كونه استجابة ثانوية أو اضطرابا يعيق التفكير العقلاني، إلى كونه آلية تفسيرية أساسية تسهم في إعطاء السلوك معناه ووظيفته. ويظهر هذا التحول بوضوح في النظريات المعرفية-الانفعالية التي تؤكد أن الانفعال ينبع من عملية تقييم معرفي للموقف، وأن السلوك لا يفهم إلا في ضوء هذا التقييم وما ينتج عنه من حالات وجدانية (Lazarus, 1991) وعليه، فإن الانفعال لا يعد نقيضا للعقل، بل مكونا مكملًا له في تفسير الفعل الإنساني.

ورغم وجود إسهامات نظرية تناولت الانفعال ووظائفه، إلا أن كثيرا من هذه الدراسات عاجلت الانفعال كمتغير تابع أو كعامل مساعد في تفسير السلوك، دون الارتقاء به إلى مستوى المنظومة التفسيرية المتكاملة. ويلاحظ أن التركيز انصب في الغالب على تصنيف الانفعالات أو بيان آثارها، أكثر من الانشغال بتحليل بنيتها الداخلية ودورها التفسيري في

فهم السلوك الإنساني في شموليته (الطاهر، 2010). وهذا ما يبرز الحاجة إلى إعادة طرح موضوع الانفعال من منظور مفاهيمي أعمق.

انطلاقاً من ذلك، تسعى هذه الدراسة النظرية إلى معالجة الانفعال بوصفه منظومة تفسيرية للسلوك الإنساني، من خلال تحليل مفاهيمه الأساسية، واستعراض موقعه في أبرز النظريات النفسية، ومناقشة قدرته على تقديم تفسير دينامي ومتكامل للسلوك. ولا تهدف الدراسة إلى تقديم تطبيقات ميدانية أو نماذج إجرائية، بل تركز على البناء النظري والتحليل المفاهيمي، بما يسهم في إثراء النقاش الأكاديمي حول مكانة الانفعال في تفسير السلوك الإنساني وفتح آفاق بحثية نظرية جديدة.

1. إشكالية الدراسة وتساؤلاتها

على الرغم من تعدد المقاربات النظرية التي سعت إلى تفسير السلوك الإنساني، إلا أن أغلب هذه المقاربات عاجلت الانفعال بوصفه مكوناً ثانوياً أو متغيراً تابعاً لعمليات معرفية أو سلوكية أوسع، مما أدى إلى اختزال دوره في مجرد استجابة وجدانية للمثيرات الخارجية. وقد ترتب على هذا التناول إغفال الطابع البنيوي والدينامي للانفعال، بوصفه منظومة نفسية متكاملة تتفاعل فيها المكونات الفسيولوجية والمعرفية والسلوكية، وتسهم بشكل مباشر في تنظيم السلوك الإنساني وتوجيهه (زهران، 2005).

وتبرز الإشكالية بصورة أوضح عند ملاحظة أن السلوك الإنساني لا يمكن تفسيره تفسيراً شاملاً بالاعتماد على المثير والاستجابة فقط، ولا من خلال العمليات المعرفية المجردة بمعزل عن البعد الوجداني. فالفرد قد يستجيب للموقف ذاته بسلوكيات مختلفة تبعا لحالته الانفعالية وتقييمه الذاتي للحدث، الأمر الذي يشير إلى أن الانفعال لا يعد مجرد نتيجة للسلوك، بل قد يشكل أحد محدداته الأساسية ومفسراته الجوهرية (عبد الرحمن، 1998).

وعلى الرغم من الإسهامات التي قدمتها النظريات المعرفية-الانفعالية، ولا سيما نظرية التقييم المعرفي، في إبراز دور الانفعال في تفسير السلوك، إلا أن الجدل ما يزال قائماً حول طبيعة هذا الدور وحدوده. فهل يمكن النظر إلى الانفعال بوصفه وسيطاً تفسيرياً بين المثير والاستجابة؟ أم أنه يشكل منظومة مستقلة قادرة على تفسير السلوك الإنساني في شموليته؟

وهل يكفي الاعتماد على التفسير الانفعالي دون الوقوع في اختزال نظري يغفل أبعاداً نفسية أخرى؟ (Lazarus, 1991; Frijda, 1986).

وتتجلى الإشكالية أيضاً في السياق العربي، حيث يلاحظ محدودية الدراسات التي تناولت الانفعال من منظور نظري تكاملي، مقابل هيمنة الطابع الوصفي أو التصنيفي للانفعالات. ويسهم هذا النقص في إضعاف القدرة التفسيرية للنظريات النفسية العربية في فهم السلوك الإنساني، ويحد من إمكان تطوير نماذج نظرية تستجيب لتعقيد الظاهرة السلوكية (الطاهر، 2010).

وانطلاقاً من ذلك، تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول التساؤل الرئيس الآتي:

إلى أي مدى يمكن اعتبار الانفعال منظومة تفسيرية متكاملة للسلوك الإنساني؟

تساؤلات الدراسة

وانبثق عن هذا التساؤل الرئيس مجموعة من التساؤلات الفرعية، هي:

1. ما المقصود بالانفعال ، وما مكوناته الأساسية؟
2. كيف عاجلت النظريات النفسية الكبرى مفهوم الانفعال وعلاقته بالسلوك الإنساني؟
3. هل يمثل الانفعال سبباً مباشراً للسلوك أم وسيطاً تفسيرياً بين المثير والاستجابة؟
4. ما حدود التفسير الانفعالي للسلوك الإنساني مقارنة بالمقاربات السلوكية والمعرفية؟
5. إلى أي مدى يمكن بناء تصور نظري تكاملي يجعل من الانفعال إطاراً تفسيرياً للسلوك الإنساني دون الوقوع

في الاختزال؟

2. الإطار المفاهيمي للانفعال

1.2 تعريف الانفعال

يعد مفهوم الانفعال من المفاهيم المحورية في علم النفس، غير أنه من أكثرها إشكالية من حيث التعريف والدلالة، نظراً لتعدد زوايا النظر إليه واختلاف المرجعيات النظرية التي تناولته. ففي الاستخدام اللغوي العربي، يرتبط الانفعال بحالة من الاضطراب أو التأثير النفسي الذي يطرأ على الفرد نتيجة مثير داخلي أو خارجي، ويصاحبه تغير في المشاعر والتعبيرات والسلوك. ويفهم الانفعال لغوياً على أنه خروج مؤقت عن حالة الاتزان، وهو ما يعكس الطابع الدينامي وغير الثابت لهذه الظاهرة.

أما في الأدبيات النفسية، فقد عرف زهران (2005) الانفعال بوصفه حالة وجدانية مركبة تتضمن خبرة شعورية ذاتية، وتغيرات فسيولوجية داخلية، واستجابات سلوكية ظاهرة، تنشأ نتيجة إدراك الفرد لموقف ذي دلالة نفسية. ويبرز في هذا التعريف التأكيد على الطابع الكلي للانفعال، باعتباره تجربة نفسية متكاملة لا يمكن اختزالها في بعد واحد. كما يشير هذا الطرح إلى أن الانفعال ليس مجرد استجابة آلية، بل يرتبط بتفسير الفرد للموقف ومعناه الذاتي.

وقد شهد مفهوم الانفعال تطوراً ملحوظاً عبر تاريخ الفكر النفسي. ففي المراحل الأولى، ولا سيما في المقاربات الفسيولوجية، تم النظر إلى الانفعال باعتباره نتيجة مباشرة للتغيرات الجسدية، حيث اعتبر الإحساس الجسدي أساس الخبرة الانفعالية. غير أن هذا التصور واجه انتقادات لعدم قدرته على تفسير الفروق الفردية في الاستجابة الانفعالية للمواقف المتشابهة. ومع بروز الاتجاهات المعرفية، أصبح الانفعال يفهم على أنه نتاج عملية تقييم معرفي للموقف، وأن المعنى الذي يمنحه الفرد للحدث هو المحدد الرئيس لطبيعة الانفعال وشدته.

وفي هذا السياق، يشير Izard (2009) إلى أن الانفعالات تمثل أنظمة نفسية أساسية تطورت تطوراً وظيفياً، وتؤدي دوراً مركزياً في تنظيم السلوك الإنساني والتكيف مع البيئة. ويؤكد هذا التصور أن الانفعال لا يمكن اعتباره ظاهرة هامشية، بل هو جزء من البنية النفسية التي توجه الفعل الإنساني وتمنحه دلالاته. ومن هذا المنطلق، فإن الانفعال يعد منظومة تفسيرية تتيح فهماً أعمق للسلوك الإنساني، بدلاً من اعتباره مجرد حالة شعورية عابرة.

إن تتبع تطور مفهوم الانفعال يكشف عن انتقال واضح من النظرة الاختزالية إلى الرؤية التكاملية، حيث لم يعد الانفعال يفسر في ضوء بعد واحد، بل في إطار تفاعل معقد بين الخبرة الذاتية والبنية المعرفية والاستجابة السلوكية. ويعد هذا

التحول أساسيا لفهم الانفعال كمنظومة تفسيرية للسلوك، إذ يتيح تجاوز الثنائية التقليدية بين العقل والانفعال، ويؤكد أن السلوك الإنساني هو نتاج تفاعل دينامي بين التفكير والشعور.

2.2 مكونات الانفعال

يتفق معظم الباحثين على أن الانفعال يتكون من مجموعة من المكونات المتفاعلة، لا تعمل بصورة منفصلة، بل في إطار منظومة متكاملة. ويمكن التمييز، لأغراض التحليل النظري، بين ثلاثة مكونات رئيسية: الفسيولوجي، والمعرفي، والسلوكي.

1.2.2 المكون الفسيولوجي

يشير المكون الفسيولوجي إلى التغيرات الجسدية التي تصاحب الحالة الانفعالية، مثل تسارع ضربات القلب، وتغير التنفس، والنشاط العصبي والهرموني. وقد ركزت المقاربات الكلاسيكية على هذا البعد، معتبرة أن هذه التغيرات تشكل الأساس البيولوجي للانفعال. غير أن الاقتصار على التفسير الفسيولوجي يعد قاصرا عن تفسير المعنى النفسي للانفعال، إذ إن التغيرات الجسدية قد تكون متشابهة في انفعالات مختلفة.

يمكن النظر إلى المكون الفسيولوجي بوصفه البنية التحتية للانفعال، لكنه لا يكفي بمفرده لتفسير السلوك. فالجسم يستجيب، لكن العقل يفسر، والسلوك يتشكل في ضوء هذا التفاعل.

2.2.2 المكون المعرفي

يتمثل المكون المعرفي في العمليات العقلية التي يقوم بها الفرد لتفسير الموقف وتقييمه، وتحديد دلالاته الشخصية. ويعد هذا المكون محوريا في تحديد نوع الانفعال وحدته واتجاهه. فالانفعال لا ينشأ عن الموقف في حد ذاته، بل عن المعنى الذي يضيفه الفرد عليه. وهذا ما يفسر اختلاف الاستجابات الانفعالية للأفراد تجاه الموقف نفسه.

إن إبراز الدور المعرفي في الانفعال يؤكد أن الانفعال ليس نقيضا للعقل، بل نتيجة له. فالتقييم المعرفي يشكل حلقة الوصل بين الحدث الخارجي والخبرة الانفعالية، مما يعزز مكانة الانفعال كآلية تفسيرية للسلوك الإنساني.

3.2.2 المكون السلوكي

يتجلى المكون السلوكي في التعبيرات والانفعالات الظاهرة، سواء كانت لفظية أو غير لفظية، كتعابير الوجه، ونبرة الصوت، وحركات الجسد. ويعد هذا المكون الوسيلة التي يتحول من خلالها الانفعال إلى فعل اجتماعي يمكن ملاحظته وتفسيره. ومن خلاله، يؤثر الانفعال في العلاقات الإنسانية وفي أنماط التفاعل الاجتماعي. يمثل السلوك الانفعالي الجسر بين الخبرة الداخلية والعالم الخارجي. ومن ثم، فإن فهم السلوك الإنساني يقتضي تحليل هذا البعد بوصفه ناتجا لمنظومة انفعالية متكاملة، لا مجرد استجابة سطحية.

يظهر التحليل المفاهيمي للانفعال أنه ظاهرة نفسية مركبة لا يمكن اختزالها في أحد مكوناتها، بل ينبغي فهمها في إطار منظومة دينامية تتفاعل فيها الأبعاد الفسيولوجية والمعرفية والسلوكية. ومن هذا المنطلق، يصبح الانفعال إطارا تفسيريا قادرا على الإحاطة بتعقيد السلوك الإنساني، وتجاوز التفسيرات الجزئية التي تفصل بين الشعور والتفكير والفعل.

3. الانفعال في النظريات النفسية الكبرى

1.3 الانفعال في النظريات الكلاسيكية

1.1.3 الانفعال في التحليل النفسي

يحتل الانفعال موقعا مركزيا في نظرية التحليل النفسي، حيث يرتبط ارتباطا وثيقا بالدوافع الغريزية والصراعات النفسية اللاشعورية. فقد نظر التحليل النفسي إلى الانفعالات بوصفها تعبيراً عن توترات داخلية ناتجة عن صراع بين مكونات الشخصية، ولا سيما بين الهو والأنا والأنا الأعلى. ويفهم الانفعال في هذا السياق على أنه مظهر من مظاهر الطاقة النفسية التي تسعى إلى التفريغ أو التحويل في صورة سلوك أو أعراض نفسية (الطاهر، 2010).

ويبرز القلق، على وجه الخصوص، كأحد الانفعالات المحورية في التحليل النفسي، إذ يعد إشارة إنذارية تنبه الأنا إلى وجود خطر داخلي أو خارجي، مما يدفعها إلى توظيف آليات دفاعية لتنظيم السلوك وحماية التوازن النفسي. وبذلك، لا ينظر إلى الانفعال كظاهرة سطحية، بل كآلية تنظيمية عميقة تؤثر في توجيه السلوك الإنساني.

على الرغم من القيمة التفسيرية التي يمنحها التحليل النفسي للانفعال، إلا أن تركيزه المفرط على البعد اللاشعوري قد حد من قدرته على تفسير التنوع الظاهري للسلوك الانفعالي في المواقف اليومية. ومع ذلك، يبقى إسهامه أساسيا في إبراز الطابع الدينامي للانفعال ودوره في توجيه السلوك من خلفية نفسية عميقة.

2.1.3 الانفعال في السلوكية

على النقيض من التحليل النفسي، تبنت السلوكية موقفا اختزاليا من الانفعال، حيث تم استبعاده بوصفه ظاهرة داخلية غير قابلة للملاحظة المباشرة. فقد ركز السلوكيون على السلوك الظاهر، معتبرين الانفعال مجرد استجابة شرطية للمثيرات البيئية، يمكن تفسيرها في إطار علاقات التعلم والتعزيز. وفي هذا السياق، يفهم الانفعال بوصفه نمطا من الاستجابات الجسدية والسلوكية المكتسبة.

وقد أسهم هذا التوجه في تقليص مكانة الانفعال في تفسير السلوك، وحصره في بعده الظاهري القابل للقياس، دون الاهتمام بمخبرته الذاتية أو معناه النفسي. ورغم ما قدمه المنظور السلوكي من أدوات منهجية دقيقة لدراسة السلوك، إلا أنه عجز عن تقديم تفسير شامل للخبرة الانفعالية الإنسانية (الطاهر، 2010).

يكشف التناول السلوكي للانفعال عن مفارقة نظرية، إذ سعى إلى تفسير السلوك الإنساني عبر إقصاء أحد مكوناته الجوهرية. وهذا ما يبرز محدودية المقاربة السلوكية في فهم السلوك المعقد، ويعزز الحاجة إلى نماذج تفسيرية تتجاوز السلوك الظاهر إلى بنيته النفسية الداخلية.

2.3 الانفعال في النظريات المعرفية

1.2.3 نظرية التقييم المعرفي (Lazarus)

مثلت النظريات المعرفية تحولا نوعيا في فهم الانفعال، حيث تم ربطه بالعمليات العقلية التي يقوم بها الفرد لتفسير الموقف وتقييمه. ويعد Lazarus (1991) من أبرز ممثلي هذا الاتجاه، إذ يرى أن الانفعال ينتج عن عملية تقييم معرفي تحدد ما إذا كان الموقف ذا دلالة إيجابية أو سلبية بالنسبة للفرد، وما إذا كان يهدد أهدافه أو يدعمها.

ويؤكد هذا التصور أن الانفعال ليس استجابة تلقائية للمثير، بل نتاج تفاعل معقد بين الحدث الخارجي والبنية المعرفية للفرد. ومن ثم، يصبح الانفعال مفتاحاً لفهم السلوك، إذ إن نوع الانفعال وشدةه يحددان طبيعة الاستجابة السلوكية اللاحقة.

تكمن قوة نظرية التقييم المعرفي في قدرتها على تفسير الفروق الفردية في السلوك الانفعالي، غير أنها قد تتهم أحياناً بإغفال البعد التلقائي أو اللاواعي لبعض الانفعالات، مما يستدعي دمجها مع مقاربات أخرى لتحقيق تفسير أكثر شمولاً.

2.2.3 دور المعنى والتفسير الذاتي

توسعت المقاربات المعرفية في التركيز على مفهوم المعنى، معتبرة أن الانفعال يعكس الطريقة التي يفهم بها الفرد ذاته وعلاقته بالعالم. فالتفسير الذاتي للأحداث يلعب دوراً محورياً في تشكيل الخبرة الانفعالية، وبالتالي في توجيه السلوك الإنساني. ويؤدي هذا المنظور إلى اعتبار الانفعال وسيطاً تفسيرياً يربط بين المعرفة والسلوك. إن التركيز على المعنى يحرر الانفعال من كونه مجرد رد فعل، ويمنحه بعداً تفسيرياً عميقاً، إذ يصبح السلوك تعبيراً عن كيفية فهم الفرد للعالم وليس مجرد استجابة للمثيرات.

3.3 المقاربات التكاملية

1.3.3 نموذج Scherer

قدم Scherer (2005) نموذجاً تكاملياً للانفعال يعرف بنموذج التقييم المتعدد المستويات، حيث يرى أن الانفعال ينتج عن سلسلة من عمليات التقييم المعرفي التي تشمل أبعاداً مختلفة، مثل ملاءمة الحدث، وإمكان التحكم فيه، ودلالته بالنسبة للأهداف والقيم الشخصية. ويتميز هذا النموذج بدمجه بين المكونات الفسيولوجية والمعرفية والسلوكية في إطار واحد.

يمثل نموذج Scherer خطوة متقدمة في فهم الانفعال كمنظومة تفسيرية، إذ يتيح تجاوز التفسيرات الأحادية، ويقدم تصوراً دينامياً ينسجم مع تعقيد السلوك الإنساني.

2.3.3 التنظيم الانفعالي عند Gross

يركز Gross (2015) على مفهوم التنظيم الانفعالي، بوصفه مجموعة من العمليات التي يستخدمها الفرد للتأثير في طبيعة انفعالاته وتوقيتها وحدتها. ويظهر هذا الطرح أن الانفعال ليس حالة ثابتة، بل عملية قابلة للتعديل والتنظيم، مما ينعكس مباشرة على السلوك الإنساني.

ويؤكد Gross أن فهم السلوك يتطلب تحليل كيفية إدارة الفرد لانفعالاته، وليس فقط طبيعة الانفعال ذاته. ومن هنا، يصبح التنظيم الانفعالي عنصراً تفسيرياً أساسياً في فهم التباين السلوكي بين الأفراد.

يسهم مفهوم التنظيم الانفعالي في توسيع الإطار التفسيري للانفعال، إذ يبرز دور الفاعلية الذاتية في توجيه السلوك، ويؤكد أن الانفعال ليس قوة فهرية، بل منظومة دينامية قابلة للتشكيل.

يظهر استعراض موقع الانفعال في النظريات النفسية الكبرى تطوراً واضحاً من التفسيرات الاختزالية إلى المقاربات التكاملية. ويعزز هذا التطور الفكرة القائلة بأن الانفعال يشكل منظومة تفسيرية أساسية لفهم السلوك الإنساني، تتجاوز حدود النظريات التقليدية، وتفتح المجال أمام نماذج نظرية أكثر شمولاً وعمقاً.

4. الانفعال كمنظومة تفسيرية للسلوك الإنساني

يمثل الانتقال من النظر إلى الانفعال بوصفه حالة وجدانية عابرة إلى اعتباره منظومة تفسيرية تحولاً نوعياً في فهم السلوك الإنساني. فالسلوك لا يصدر عن الفرد بمعزل عن حالته الانفعالية، بل يتشكل في سياق دينامي تتداخل فيه الخبرة الوجدانية مع العمليات المعرفية والدافعية. ومن هذا المنطلق، يصبح الانفعال إطاراً تفسيرياً قادراً على الكشف عن منطق السلوك الإنساني ومعناه، وليس مجرد وصف لتأثيره الظاهرة.

1.4 العلاقة السببية بين الانفعال والسلوك

أثارت العلاقة بين الانفعال والسلوك جدلاً نظرياً واسعاً، تمحور حول التساؤل عما إذا كان الانفعال سبباً للسلوك أم نتيجة له. وتشير المقاربات الحديثة إلى أن هذه العلاقة ليست خطية ولا أحادية الاتجاه، بل تقوم على تأثير متبادل.

فالانفعال قد يشكل دافعا مباشرا للسلوك، كما في حالات الخوف أو الغضب، وفي الوقت نفسه قد يعاد تشكيله بفعل السلوك ذاته وتبعاته.

يرى (Frijda 1986) أن الانفعالات تتضمن نزعات فعلية (Action Tendencies) توجه الفرد نحو أنماط سلوكية محددة، مما يمنح الانفعال طابعا توجيهيا وليس مجرد حالة داخلية. وبهذا المعنى، فإن الانفعال لا يسبق السلوك زمنيا فقط، بل يحتوي في بنيته على استعداد سلوكي كامن.

إن النظر إلى الانفعال بوصفه حاملا لنزعات الفعل يحرر العلاقة بين الانفعال والسلوك من الجدل السببي التقليدي، ويجعلها علاقة بنيوية، حيث يصبح السلوك تجسيدا خارجيا لمنظومة انفعالية داخلية.

2.4 الانفعال كوسيط بين المثير والاستجابة

تظهر النماذج التفسيرية الحديثة أن الانفعال يشكل حلقة وصل أساسية بين المثير الخارجي والاستجابة السلوكية. فالمثير لا يؤدي إلى السلوك بصورة مباشرة، بل يمر عبر منظومة انفعالية تقوم بتقييم الحدث وإضفاء معنى عليه، ومن ثم توجيه الاستجابة المناسبة. ويؤكد هذا التصور أن الانفعال ليس مجرد متغير تابع، بل وسيط تفسيري فاعل في تشكيل السلوك الإنساني.

وتشير حسن (2018) إلى أن الانفعال يلعب دورا محوريا في تحويل الخبرة الإدراكية إلى فعل سلوكي ذي دلالة نفسية، إذ يحدد طبيعة الاستجابة واتجاهها وحدتها. وبذلك، يصبح الانفعال عنصرا تفسيريا لا غنى عنه لفهم التباين في السلوكيات الإنسانية أمام المثيرات المتشابهة.

إن اعتبار الانفعال وسيطا تفسيريا يسمح بتجاوز النماذج الآلية التي تربط المثير بالاستجابة، ويفتح المجال أمام فهم السلوك بوصفه نتاجا لتفاعل داخلي معقد، لا مجرد انعكاس مباشر للبيئة.

3.4 البعد التنبؤي للانفعال في تفسير السلوك

لا تقتصر أهمية الانفعال على تفسير السلوك بعد وقوعه، بل تمتد إلى قدرته على التنبؤ به. فالحالات الانفعالية المستقرة نسبيا، مثل الميل الوجداني أو الأنماط الانفعالية، تسهم في تشكيل توقعات سلوكية يمكن الاستدلال عليها نظريا. ويظهر هذا البعد التنبؤي أن الانفعال يشكل مؤشرا دالا على السلوك المحتمل في مواقف مستقبلية.

ويرتبط هذا البعد ارتباطا وثيقا بنزعات الفعل التي تحدث عنها (Frijda 1986)، حيث تحمل الانفعالات في بنيتها استعدادات سلوكية تميل إلى التحقق عندما تتوفر الظروف المناسبة.

إن البعد التنبؤي للانفعال يعزز مكانته كمنظومة تفسيرية، إذ لا يكتفي بشرح السلوك بأثر رجعي، بل يتيح فهما استباقيا للسلوك الإنساني في ضوء الحالات الانفعالية السائدة.

4.4 الربط بين الانفعال والدافعية

يشكل التفاعل بين الانفعال والدافعية أحد المرتكزات الأساسية لفهم السلوك الإنساني. فالانفعال يمنح الدافعية شحنتها الوجدانية، بينما توجه الدافعية الانفعال نحو أهداف محددة. وبهذا المعنى، لا يمكن فصل الانفعال عن الدافعية دون الإخلال بالبناء التفسيري للسلوك.

وتبرز أهمية هذا الربط في كون الانفعال لا يحرك السلوك فحسب، بل يحدد اتجاهه وقيمتة النفسية، مما يجعله عنصرا تنظيميا في الفعل الإنساني.

إن دمج الانفعال بالدافعية يسمح بفهم السلوك بوصفه فعلا موجها نحو المعنى، وليس مجرد استجابة انفعالية أو سعي غريزي نحو الإشباع.

5.4 الانفعال كمنظم للسلوك وليس مجرد استجابة

تؤكد المقاربات المعاصرة أن الانفعال يؤدي وظيفة تنظيمية في السلوك الإنساني، حيث يسهم في ترتيب الأولويات، وضبط الاستجابات، وتوجيه الفعل نحو ما يحقق التكيف النفسي. ويظهر هذا الدور التنظيمي في قدرة الفرد على تعديل سلوكه تبعا لحالته الانفعالية، وليس فقط الاستجابة للمثيرات.

وترى حسن (2018) أن الانفعال يشكل نظاما داخليا ينسق بين مختلف العمليات النفسية، مما يمنحه دورا مركزيا في تفسير السلوك الإنساني في شموليته.

إن اعتبار الانفعال منظما للسلوك يرسخ مكانته كنواة تفسيرية للسلوك الإنساني، ويؤكد أن الفعل الإنساني هو نتاج تنظيم داخلي معقد، لا مجرد سلسلة من الاستجابات الظرفية.

يتضح من التحليل السابق أن الانفعال لا يمكن اختزاله في كونه حالة وجدانية عابرة أو استجابة آنية، بل يمثل منظومة تفسيرية متكاملة تتوسط بين المثير والاستجابة، وتوجه السلوك، وتتيح التنبؤ به. ومن ثم، فإن فهم السلوك الإنساني يظل ناقصا ما لم ينظر إلى الانفعال بوصفه إطارا تفسيريا ديناميا يتفاعل مع الدافعية والمعرفة في تشكيل الفعل الإنساني.

5. نقاش نظري ونقدي

بعد تناول الانفعال بوصفه منظومة تفسيرية للسلوك الإنساني خطوة نظرية متقدمة تسهم في تجاوز كثير من القصور الذي اتسمت به المقاربات التقليدية. غير أن هذا الطرح، على الرغم من أهميته، يثير جملة من التساؤلات والإشكالات النظرية التي تستوجب نقاشا نقديا متأنيا، وذلك تفاديا للوقوع في اختزال نظري يعيد إنتاج المشكلات ذاتها التي سعت هذه المقاربة إلى تجاوزها.

1.5 حدود التفسير الانفعالي للسلوك الإنساني

على الرغم من القدرة التفسيرية التي يتيحها الانفعال في فهم السلوك الإنساني، إلا أن الاعتماد عليه كإطار تفسيري وحيد ينطوي على حدود معرفية واضحة. فالسلوك الإنساني نتاج تفاعل معقد بين عوامل متعددة، من بينها المعرفية والاجتماعية والثقافية، ولا يمكن إرجاعه بصورة كاملة إلى البعد الانفعالي فقط. ويشير بن عيسى (2020) إلى أن المبالغة في تفسير السلوك من منظور انفعالي قد تؤدي إلى إغفال السياق الاجتماعي والرمزي الذي يمنح السلوك معناه. تكمن قيمة التفسير الانفعالي في كونه بعدا مركزيا، لا بديلا شاملا. ومن ثم، فإن توظيفه ينبغي أن يتم ضمن إطار تفسيري أوسع، يدمج بين مختلف الأبعاد النفسية والبيئية، بدلا من الاكتفاء به كعامل مفسر أحادي.

2.5 إشكالية الفصل بين الانفعال والمعرفة

تعد مسألة الفصل بين الانفعال والمعرفة من أكثر الإشكالات النظرية تعقيدا في علم النفس. فقد سادت لفترة طويلة نظرة ثنائية تفصل بين العقل بوصفه مصدرا للتفكير المنطقي، والانفعال بوصفه عاملا معيقا لهذا التفكير. غير أن هذا الفصل لم يعد مقبولا في ضوء المقاربات المعاصرة التي تؤكد التداخل البنوي بين العمليات المعرفية والانفعالية.

ويبرز (Scherer 2005) أن الانفعال يتضمن عمليات تقييم معرفي معقدة، مما يجعل الفصل بين الانفعال والمعرفة فصلاً مصطنعاً لا يعكس الواقع النفسي للفرد. فالتجربة الانفعالية نفسها تتشكل عبر إدراك وتفسير وتقييم، وهي عمليات معرفية في جوهرها.

إن الإصرار على الفصل بين الانفعال والمعرفة يفضي إلى تفسير مجزأ للسلوك الإنساني، في حين أن النظر إليهما كمنظومة متكاملة يسمح بفهم أعمق للفعل الإنساني بوصفه نتاجاً لتفاعل الشعور والتفكير معاً.

3.5 مخاطر الاختزال النظري

يتمثل أحد أبرز التحديات التي تواجه التفسير الانفعالي في خطر الاختزال النظري، أي اختزال السلوك الإنساني في بعد واحد وإغفال تعقيده البنيوي. ويظهر هذا الخطر حين ينظر إلى الانفعال باعتباره العامل الحاسم الوحيد في تفسير السلوك، دون مراعاة التفاعلات المتبادلة مع العوامل الأخرى.

ويحذر بن عيسى (2020) من أن هذا الاختزال قد يؤدي إلى تبسيط مفرط للظواهر النفسية، ويحد من القدرة على بناء نماذج تفسيرية مرنة تستجيب لتنوع الخبرة الإنسانية.

إن تجاوز الاختزال لا يتحقق برفض التفسير الانفعالي، بل بإعادة توظيفه ضمن إطار نظري دينامي يسمح بتكامل الأبعاد المختلفة للسلوك الإنساني.

4.5 الحاجة إلى تصور دينامي للسلوك الإنساني

تبرز الإشكالات السابقة الحاجة إلى تصور دينامي للسلوك الإنساني، ينظر فيه إلى الانفعال بوصفه عملية مستمرة ومتغيرة، لا حالة ثابتة أو معزولة. ويؤكد هذا التصور أن الانفعال يتطور عبر الزمن، ويتأثر بالسياق، ويتفاعل مع المعرفة والدافعية والخبرة السابقة.

ويعد نموذج (Scherer 2005) مثالا على هذا التوجه الدينامي، حيث يقدم الانفعال كسلسلة من عمليات التقييم المتعاقبة، لا كاستجابة آنية جامدة.

إن تبني تصور دينامي للانفعال يتيح فهما أكثر واقعية للسلوك الإنساني، ويجنب الوقوع في تفسيرات جامدة لا تعكس الطابع المتغير للتجربة النفسية.

5.5 تجاوز الثنائية (انفعال / عقل)

تعد ثنائية الانفعال والعقل من أكثر الثنائيات ترسخا في الفكر النفسي والفلسفي، غير أن تجاوزها بات ضرورة نظرية لفهم السلوك الإنساني المعاصر. فالسلوك لا يصدر عن عقل مجرد من الانفعال، ولا عن انفعال منفصل عن التفكير، بل عن وحدة نفسية متكاملة.

إن تجاوز هذه الثنائية لا يعني إلغاء التمايز الوظيفي بين الانفعال والمعرفة، بل الاعتراف بتكاملهما البنوي، واعتبارهما بعدين متداخلين يسهمان معا في تفسير السلوك الإنساني.

يظهر النقاش النظري أن الانفعال، رغم أهميته التفسيرية، لا يمكن أن يفهم أو يوظف بمعزل عن بقية الأبعاد النفسية. ومن ثم، فإن القيمة الحقيقية للتفسير الانفعالي تكمن في دمجها ضمن تصور دينامي تكاملي، يتجاوز الثنائيات التقليدية، ويعكس التعقيد البنوي للسلوك الإنساني.

6. نحو نموذج نظري تكاملي

في ضوء التحليلات المفاهيمية والنقاشات النظرية السابقة، تبرز الحاجة إلى بناء نموذج نظري تكاملي يعيد تنظيم العلاقة بين الانفعال والمعرفة والسلوك ضمن إطار تفسيري واحد. ولا يهدف هذا النموذج إلى تقديم صيغة تجريبية قابلة للاختبار الميداني، بل إلى اقتراح تصور مفاهيمي يتيح فهما أعمق لدينامية السلوك الإنساني، ويتجاوز حدود التفسيرات الجزئية أو الاختزالية التي سادت بعض الاتجاهات النظرية.

1.6 متركزات النموذج التكاملي المقترح

ينطلق النموذج المقترح من فرضية أساسية مفادها أن السلوك الإنساني هو نتاج تفاعل مستمر بين ثلاث منظومات نفسية رئيسية: الانفعال، والمعرفة، والفعل السلوكي. ولا تفهم هذه المنظومات بوصفها مراحل متعاقبة خطياً، بل باعتبارها أنساقاً ديناميكية متداخلة يؤثر كل منها في الآخر بصورة مستمرة.

ويفترض النموذج أن الانفعال يشكل البنية التنظيمية المركزية التي تمنح المعرفة شحنتها الوجدانية، وتوجه السلوك نحو غايات ذات معنى نفسي. وفي هذا السياق، لا ينظر إلى الانفعال كاستجابة لاحقة للفعل، بل كبنية مفسرة تشارك في إنتاج السلوك منذ لحظة إدراك الموقف.

إن مركزية الانفعال في هذا النموذج لا تعني هيمنته المطلقة، بل دوره التنظيمي الذي يسمح بتنسيق التفاعل بين المعرفة والسلوك في إطار واحد متماسك.

2.6 دمج الانفعال والمعرفة والسلوك

يقترح النموذج التكاملي تصوراً دائرياً للعلاقة بين الانفعال والمعرفة والسلوك، حيث تؤثر المعرفة في الانفعال من خلال عمليات التفسير والتقييم، في حين يؤثر الانفعال في المعرفة عبر توجيه الانتباه وتحديد الأولويات المعرفية. أما السلوك، فيمثل المخرج الظاهر لهذا التفاعل، لكنه في الوقت ذاته يعيد تشكيل المعرفة والانفعال من خلال التغذية الراجعة.

ويتقاطع هذا التصور مع طرح (Bandura 1986) في نظريته المعرفية الاجتماعية، حيث يؤكد على التفاعل التبادلي بين العوامل الشخصية والسلوكية والبيئية. غير أن النموذج المقترح يوسع هذا الطرح من خلال إبراز الانفعال بوصفه البنية الدينامية التي تضيف على هذا التفاعل طابعه الإنساني والذاتي.

يسمح هذا الدمج بتجاوز التصورات الخطية للسلوك، ويؤكد أن الفعل الإنساني هو نتيجة عملية مستمرة من التفاعل والتعديل الذاتي، لا استجابة آتية أو قراراً عقلياً صرفاً.

3.6 الانفعال كبنية ديناميكية مفسرة للسلوك

يركز النموذج المقترح على اعتبار الانفعال بنية دينامية تتغير عبر الزمن، وتتأثر بالسياق والخبرة السابقة، وقابلة للتنظيم والتعديل. ويتقاطع هذا التصور مع مفهوم التنظيم الانفعالي الذي طرحه (Gross 2015)، حيث يبرز قدرة الفرد على التأثير في طبيعة انفعالاته، وفي توقيتها وحدتها، بما ينعكس على سلوكه.

وفي هذا الإطار، يفهم السلوك بوصفه نتاجا لعملية تنظيم انفعالي مستمرة، لا مجرد انعكاس لحالة وجدانية لحظية. ويمنح هذا الطرح الانفعال بعدا تفسيريا أعمق، إذ يصبح أداة لفهم الاستمرارية والتغير في السلوك الإنساني. إن النظر إلى الانفعال كبنية دينامية يتيح تجاوز الفهم الساكن للسلوك، ويؤكد أن التغير السلوكي لا يتحقق إلا عبر التغير في المنظومة الانفعالية المنظمة له.

4.6 القيمة النظرية للنموذج التكاملي

تتمثل القيمة الأساسية للنموذج المقترح في كونه:

- يتجاوز الثنائيات التقليدية (انفعال/عقل، داخل/خارج).
- يدمج بين التفسيرات المعرفية والانفعالية والسلوكية في إطار واحد.
- يقدم تصورا تفسيريا مرنا يستوعب تعقيد السلوك الإنساني.

ولا يدعي هذا النموذج الشمول أو الاكتمال، بل يطرح بوصفه إطارا نظريا مفتوحا قابلا للتطوير والنقاش، بما يسهم في إثراء الأدبيات النفسية وتوجيه بحوث نظرية مستقبلية.

يقترح هذا القسم نمودجا نظريا تكامليا يضع الانفعال في قلب العملية التفسيرية للسلوك الإنساني، دون عزله عن المعرفة أو الفعل. ويؤكد النموذج أن فهم السلوك يقتضي النظر إليه بوصفه نتاج تفاعل دينامي مستمر بين الانفعال والمعرفة والسلوك، ضمن سياق نفسي واجتماعي متغير.

الخاتمة

سعى هذا المقال إلى مقارنة الانفعال بوصفه منظومة تفسيرية للسلوك الإنساني، من خلال تحليل مفاهيمي ونظري تتبع تطور موقع الانفعال في أبرز الاتجاهات النفسية، ونقد حدود التفسيرات التقليدية التي عاجلته إما بوصفه استجابة ثانوية أو عاملاً معيقاً للعمليات العقلية. وقد أظهر التحليل أن الانفعال لا يمكن اختزاله في حالة وجدانية عابرة، بل يمثل بنية نفسية دينامية تتداخل فيها المكونات الفسيولوجية والمعرفية والسلوكية، وتسهم بصورة مركزية في تنظيم السلوك الإنساني وتوجيهه.

ويتمثل الإسهام النظري الرئيس للمقال في إعادة الاعتبار للانفعال كإطار تفسيري قادر على ربط المثير بالسلوك عبر عمليات التقييم والتنظيم والدافعية، بما يسمح بفهم أعمق لمعنى السلوك الإنساني ووظيفته. وقد أبرزت المناقشة أن الانفعال لا يعمل بمعزل عن المعرفة أو الفعل، بل يشكل معهما منظومة متكاملة، يكون فيها السلوك التعبير الظاهر لتفاعل داخلي معقد. ويسهم هذا التصور في تجاوز الثنائيات التقليدية التي فصلت بين العقل والانفعال، ويؤكد أن الفعل الإنساني هو نتاج وحدة نفسية متكاملة لا يمكن تجزئتها دون الإخلال بقدرتها التفسيرية.

كما أظهر المقال أن القيمة التفسيرية للانفعال لا تقتصر على فهم السلوك بعد وقوعه، بل تمتد إلى بعده التنبؤي والتنظيمي، حيث يسهم الانفعال في توجيه الفعل الإنساني، وضبط استجاباته، ومنحه دلالاته النفسية. ويعزز هذا الطرح أهمية إدماج الانفعال في النماذج النظرية المعاصرة لفهم السلوك الإنساني، باعتباره عنصراً بنيوياً لا يمكن الاستغناء عنه في أي تفسير شامل للسلوك.

وفي ضوء ما سبق، يفتح هذا المقال آفاقاً بحثية نظرية مستقبلية متعددة، من بينها تعميق البحث في النماذج التكاملية التي تدمج الانفعال والمعرفة والسلوك في إطار دينامي واحد، ومراجعة المفاهيم النفسية السائدة في ضوء الدور التنظيمي للانفعال، إضافة إلى دراسة الانفعال من منظور ثقافي مقارن يبرز أثر السياق الاجتماعي والرمزي في تشكيل الخبرة الانفعالية. كما يمكن أن تمثل هذه المقاربة أساساً لتطوير أطر نظرية جديدة تسهم في تحديد الفكر النفسي، دون الارتكان المباشر للتطبيقات الميدانية.

وبذلك، يخلص المقال إلى أن فهم السلوك الإنساني يظل قاصراً ما لم ينظر إلى الانفعال بوصفه منظومة تفسيرية دينامية تشكل قلب التجربة النفسية الإنسانية، وتمنح الفعل الإنساني معناه واتجاهه.

المراجع

أولاً: المراجع العربية

- بن عيسى، محمد. (2020). الانفعال كمنظومة نفسية مفسرة للسلوك. *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*.
- حسن، فاطمة أحمد. (2018). البعد الانفعالي في تفسير السلوك الإنساني: مقارنة نظرية. *المجلة العربية للعلوم النفسية*، 10(1)، 78.55-
- عبد الرحمن، سعد جلال. (1998). *الانفعالات الإنسانية*. القاهرة، مصر: دار الفكر العربي.
- الطاهر، محمد محمود. (2010). *الانفعال والسلوك الإنساني*. عمان، الأردن: دار المسيرة.
- زهران، حامد عبد السلام. (2005). *علم النفس الانفعالي*. القاهرة، مصر: عالم الكتب.

ثانياً: المراجع الأجنبية

- Bandura, A. (1986). *Social foundations of thought and action: A social cognitive theory*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
<https://psycnet.apa.org/record/1985-98423-000>
- Frijda, N. H. (1986). *The emotions*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.
<https://doi.org/10.1017/CBO9781139173787>
- Gross, J. J. (2015). Emotion regulation: Current status and future prospects. *Psychological Inquiry*, 26(1), 1–26.
<https://doi.org/10.1080/1047840X.2014.940781>
- Izard, C. E. (2009). Emotion theory and research: Highlights, unanswered questions, and emerging issues. *Emotion Review*, 1(1), 6–14.
<https://doi.org/10.1177/1754073908097187>
- Lazarus, R. S. (1991). *Emotion and adaptation*. New York, NY: Oxford University Press.
<https://psycnet.apa.org/record/1991-98069-000>
- Scherer, K. R. (2005). What are emotions? And how can they be measured? *Social Science Information*, 44(4), 695–729.
<https://doi.org/10.1177/0539018405058216>